الإستعمار البرتغالي في كيرالا؛ قراءة تاريخية

د/ محمد عابد . يو. بي[١]

الملخص

الإستعمار هو مصطلح يشير إلى ظاهرة سياسية واجتماعية واقتصادية وثقافية أو ظاهرة دولية تتعلق بجميع أنحاء حياة الإنسان. وهذه الظاهرة تشتمل على إقامة مستوطنات أوروبية خارج أوروبا منذ القرن الخامس عشرة واستيلاء الدول الأوروبية سياسيا واقتصاديا واجتماعيا وثقافيا على مناطق واسعة في جميع القارات الأخرى في العالم، بما في ذلك إخضاع الشعوب القاطنة فيها لحكم الدول الأوروبية واستغلال كنوزها الطبيعية وعمل السكان المحليين لصالح الدول الأوروبية. انتهى الإستعمار تدريجيا خلال النصف الآخر من القرن العشرين ولكنه يعتبر من أكثر الظواهر السياسية تأثيرا على صورة العالم المعاصر. هذه الدراسة تقصد بيان صورة عن الإستعمار البرتغالي وما إليها من الأعمال القبيحة والشنيعة التى تعرض لها المسلمون أطفالا وشيوخا، رجالا ونساء.

الإستعمار البرتغالي

إن الإمبراطورية البرتغالية هي أول امبراطورية عالمية في التاريخ. والبرتغالية أول دولة بحرية قامت بحركة الكشوف الجغرافية، فإنهم أيضا كانوا أول الدول الأوربية وصولا إلى آسيا، وعلى الرغم من أن محاولات الوصول إلى آسيا قد بدأت في العقد الأول من القرن الخامس عشر.

البرتغاليون هم الذين وصلوا إلى ولاية كيرالا أول مرة من أوربا واستولوا على سيطرة التجارة البحرية في سواحلها. وصل فاسكو دي غاما ـ الربان البرتغالي إلى الشواطئ الهندية بسفنه، عن طريق التجار العرب. ومع هذا وصل فاسكو دي غاما إلى كاليكوت مع أصحابه، إنهم خرجوا من عاصمتها لسبن مع ثلاث سفن مسميات بأسماء سانت غابريل وسانت ميكائيل وأرسلوا سفنهم في كابات يبعد ١٥ كم من شمال مدينة كاليكوت التى كانت مركزا تجاريا مشهورا[٢].

على مر الأزمنة استطاعت البرتغال تكوين إمبراطورية في منطقة الشرق، تقوم أساسا على بعض جزر الهند الشرقية وشبه القارة الهندية. وقد ساعدت البرتغال في السيطرة على هذه المناطق. وشبه القارة الهندية، فكانت دويلات، بعضها كانت مسلمة وبعضها هندوسية عند قدوم البرتغاليين تتصارعان من أجل البقاء .

[١] أستاذ مساعد، قسم دراسات الماجستير والبحوث في اللغة العربية وآدابها، كلية فاروق، كيرالا

[2] Willian Logan MCS, History of Malabar, Mathrubhumi Books, Calicut, October 2000, ISBN 81-8264-046-6, P:316

محاولات القضاء في كيرالا

وكان للبرتغاليين محاولات للقضاء على نفوذ العرب والمسلمين في جميع المجالات والأنحاء للهند وانتهزوا جميع الفرص لتهديد العرب وتحطيمهم. أدركت القوى البرتغالية أن الهند وعلى الخصوص ولاية كيرالا ولاية مناسبة لرغبتهم.

لما رست سفنهم على ساحل كاليكوت أرسل غاما اثنين من أصحابه ليعلما أوضاع الساحل وأخبار السوق خلال تجولها علما أن سلطنة التجارة الخارجية في أيدي العرب المسلمين. فحسدوا عليهم وسعوا لإختطافها منهم.

كان البرتغاليون متعصبين على المسلمين ومضطهدين عليهم على اعتبار أن هذا الإضطهاد جزء من الحروب الصليبية القديمة. هذا واضح فى قول فاسكو دي غاما عندما يخاطب السامري وهو يقول: "نحن نحب جميع الناس فى العالم ما عدا المسلمين لأنهم يريدون الخيانة علينا دائما"[١].

وبعد الوصول إلى كاليكوت بدؤوا الأعمال الإعتدائية على المسلمين بإحراق المسجد الجامع الذى بناه ناخوذا مثقال في مدينة كاليكوت.

عاشت الأمة المسلمة في مليبار إبان الإحتلال البرتغالي البغيض لأراضي مليبار في ظروف قاسية والإضطهادات الفظيعة التى تعرض لها المسلمون أطفالا وشيوخا، رجالا ونساء والهوان الذى استشعر المسلمون تحت وطأة الإحتلال، حيث لا ركن يلجأون إليه، ولا سلطان قدير يهتمون به.

وإن العرب المسلمين كان لهم النفوذ الكامل في مجال التجارات البحرية التي مقرها سواحل مليبار،كيرالا، عبر التاريخ. ولما سقطت الأندلس على أيدي الإفرنج بدأت القوات الإستعمارية تنشر نفوذها في السواحل الشرقية حرصا منها على إمتلاك خيرات هذه المناطق وجلبها إلى بلادها وفرض حكمها على أهلها. وهدفوا توسيع نطاق النشاط التجاري. ولكنهم قد أضمروا في نفوسهم مطاردة التجار العرب حتى تصبح التجارة البحرية حكرا عليهم. وكان ملوك مليبار بسذاجتهم وصفاء قلوبهم، لم يفطنوا في بادئ الأمر، إلى هذا الأخطبوط القاتل، حيث تسامحوا وتصالحوا معهم .

إن البرتغاليين الذين احتلوا بلادهم وأحرقوا ديارهم، وأهانوا أشرافهم، وهتكوا أعراضهم، ودنسوا مقدساتهم[٢]. وفعلوا فعائل قبيحة شنيعة لا تحصى من ضربهم، والإستهزاء بهم، والضحك عليهم اذا مروا بهم استخفافا، وجعلهم في محال الماء والوحل، والبصق على وجوههم وأبدانهم". هكذا قاسى المسلمون من ألوان العذاب والهوان[٣].

والقسم الرابع من "تحفة المجاهدين في بعض أخبار البرتغاليين" يتحدث عن وصول الإفرنج إلى مليبار وشيئا من أفعالهم القبيحة بعد وصول البرتغاليين بقيادة فاسكو دي غاما إلى فندرينة في

[1] Dr.Herman Gundart, History of Malabar from AD 1498-1531, Vidyartthimitram Bukk Dippo, Kottayam,1983,P:7

[2] Prof. A. Sreedhara Meon,Keralacharithram,DC Books, Kottayam,Aug, 2007, ISBN 81-264-1588-6, P :224

[3] Willian Logan MCS,History of Malabar ,Mathrubhumi Books, Calicut,Oct, 2000,ISBN 81-8264-046-6, P:361

ثلاث مسماريات ثم إلى بندر كاليكوت، ثم رجوعهم إلى البرتغال بعد شهور. وبعد سنتين جاء البرتغاليون في ست مسماريات ودخلوا كاليكوت على هيئة التجار، وطالبوا مسؤولي السامري بمنع المسلمين من التجارة؛ كما أساؤوا المعاملة إليهم فقتل السامري عددا منهم وفر الباقون إلى بندر كشي وبنوا فيها قلعة صغيرة، ثم بنوا قلعة أخرى في كننور، ثم عادوا بالفلفل والزنجبيل والسلع الأخرى إلى البرتغال. ثم تتابع قدومهم إلى مليبار كل عام. ونظرا لطموحاتهم السياسية وأهدافهم الإستعمارية حاربهم السامري في كشي وخربها، وشارك فيها المسلمون بكل رغبة واستعداد واستشهد عدد منهم في الحرب. وقد غضب البرتغاليون على المسلمين كثيرا لمشاركتهم في الحرب فهدموا بعض المساجد وحرضوا الحكام والأمراء على الإساءة إلى المسلمين وقتلهم. ثم تتابع مجيئهم إلى كيرالا ورسخت أقدامهم فيها، ففتحوا مناطق وبنوا قلاعا، وقد حاول السامري وجنوده الهندوس والمسلمون أن يدافعوا عن وطنهم، وأنفق السامري أموالا طائلة حتى ضعفت مملكته وذهبت قوته. وقد استنجد المسلمون والسامري من سلاطين المسلمين من جزرات ومصر وغيرهما فلبى بعضهم دعوتهم وساعدوهم مالا وأرسلوا إليهم جنودا. ولكن نفوذ البرتغاليين ظل يزداد يوما فيوما[١].

كان المسلمون في مليبار يملكون أموالا ويعيشون حياة طيبة، وكانوا أيضا آمنين وسالمين فيها قبل مجئ البرتغاليين. وهم بدأوا يظلمون المسلمين ظلما شديدا؛ كما أفسدوا تجارتهم وأضاقوا عليهم حياتهم. وكان المسلمون تجارا مغامرين، ومهرة في الحروب البحرية، وكانوا حجر عثرة في سبيل التجار الأوربيين. وهم لم يرحبوا بقدوم فاسكو دي غاما في كاليكوت[٢].

وبالجملة ازداد فساد البرتغاليين وظلمهم في كاليكوت، ووقعت الفتنة بينهم وبين مسلمين. فقام البرتغاليون بأعمال قبيحة كثيرة ضد المسلمين الميليباريين لا يحبها شخص مثقف فبصقوا على وجوههم، وأجبروا على إلغاء سفرهم للحج، ونهبوا أموالهم، وهدموا مساجدهم وأحرقوها، ووطئوا المصاحف والكتب المقدسة بأرجلهم، وحرضوهم على قبول قول الردة والسجود لصليبهم، وسبوا الرسول جهارا، وجاءوا بهم إلى السوق لبيعهم كما يباع العبيد، وأهانوا العلماء وأذلوا النساء، وحاولوا تنصير المسلمين. وجدير بالملاحظة هنا أن الحكام الهندوس ساعدوا المسلمين دائما وشاركوا في آلامهم.

المصادر والمراجع

- A Sreedhara Menon, Kerala History and its makers, DC Books, Kottayam, 2008, ISBN 978-81-264-21992.
- Prof. A. Sreedhara Meon, Keralacharithram, DC Books, Kottayam, Augest 2007, ISBN 81-264-1588-6.
- Sathish Chandra, Medieval India, DC Books, Kottayam, 2008, ISBN 978-81-264-17520.
- Willian Logan MCS, History of Malabar, Mathrubhumi Books, Calicut, October 2000, ISBN 81-8264-046-6.
- الشيخ أحمد زين الدين المخدوم ، تحفة المجاهدين في بعض أخبار البرتغاليين، مكتبة الهدى، كاليكوت،١٩٩٢م

[1] Willian Logan MCS, History of Malabar, Mathrubhumi Books, Calicut, Oct, 2000, ISBN 81-8264-046-6, P:361

[2] Ibid, P: 361